**المحاضرة 06: نظرية النسبيـة الثقافيــة**

* **مدخل:**

يعبّر مفهوم النسبية الثقافية عن رفض الأحكام المطلقة والنهائية فيما يتعلق بالثقافة، حيث يبقى الاشتغال بالسؤال، والحكم بالصواب والخطأ قائما عند دراسة أي ثقافة من الثقافات.

فالنسبية الثقافية هي القول بأن كل المعتقدات والعادات والأخلاق هي نسبية بحسب الفرد أو المجتمع ضمن بيئته الاجتماعية، ويبقى الصواب والخطأ مرتبطان بالثقافة، فما هو أخلاقي في مجتمع ما قد يعتبر غير أخلاقي في مجتمع آخر.

1. **ما هي النسبية الثقافية؟**

يظهر مصطلح النسبية الثقافية كنظرية قائمة، مقبول على نطاق واسع في علم الإنسانيات الحديث، ويؤكد أصحاب هذه النظرية، أن كل الثقافات مقبولة ومحترمة في حد ذاتها، وهي كلها متساوية من حيث القيمة، ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن جميع الثقافات هي تعبير مشروع للوجود الإنساني، ويجب دراستها من وجهة نظر محايدة تماما.

وترتبط النسبية الثقافية ارتباطا وثيقا بالنسبية الأخلاقية، التي ترى أنّ الحق متغير وغير مطلق، وما يشكل الصواب والخطأ يحدده الفرد وليس المجتمع، وبما أن الحق ليس موضوعيا، فلا يمكن أن يوجد أساس موضوعي ينطبق على جميع الثقافات.

ومنه يظهر أن مفهوم النسبية الثقافية تقوم على ذلك المبدأ الذي ينص على أن أفعال واعتقادات الفرد يجب أن تفهم من قبل الآخرين ضمن سياق الثقافة التي ولقد بها.([[1]](#footnote-1))

وقد تأسس هذا المبدأ كبديهية ضمن منهجية عمل الأبحاث الأنتروبولوجيا من قبل فرانس بواز الذي يعد المؤسس لعلم الأنتروبولوجيا الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية في العقود الأولى من القرن العشرين، وقد تحدث بواز عن فكرته لأول مرة عام 1887 بقوله: "الحضارة ليت بالشيء المطلق، وإنما هي نسبية، فالأفكار والمفاهيم التي تتواجد ضمن تواجدها صحيحة فقط إلى اليوم الذي تزول فيه تلك الحضارة".([[2]](#footnote-2))

فمن وجهة النظر الأنتروبولوجية يمثل مفهوم النسبية الثقافية في حقيقته دعوة إلى الأخذ بضرورة تنوع الشعوب واحترامها، ومحاولة دراستها، والوصول إلى أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات، الأمر الذي يساعد على فهم أفضل للطبيعة الإنسانية، وتفسير سلوك الأفراد كافة، والتعرف على أنماط الحياة الاجتماعية، في الحاضر والمستقبل.([[3]](#footnote-3))

وكما ذكر آنفا فإن فرانس بواز هو من أسس فعليا لنظرية النسبية الثقافية، حتى وإن كان لم يخترع هذا التعبير الذي لم يظهر إلا لاحقا، فهي تعد مبدأ منهجيا، يمكن أن يشكل أداة للإفلات من كل أشكال العرقية المركزية في دراسة ثقافة معينة، فقد أوصى بدراسة تلك الثقافة دون أفكار مسبقة، وعدم مقارنتها بأي ثقافة أخرى وقال بأن الأخذ بالمعاينة المنهجية لأي منظومة ثقافية دون أفكار مسبقة، وهدم مقارنتها بأي ثقافة أخرى.

وقال بأن الأخذ بالمعاينة المنهجية لأي منظومة ثقافية في حد ذاتها من شأنها أن تقضي على تعقيدها، فكل ثقافة هي وحدية ونوعية، ولها أسلوبها الخاص الذي يتضح من خلال اللغة والمعتقدات –الأعراف- الفن أيضا، وهذا الأسلوب هو روح يخص كل ثقافة بعينها يؤثر على سلوك الأفراد والجماعات.

وتظهر العلاقة الوطيدة بين النسبية الثقافية كمبدأ منهجي وكذلك كمبدأ أبستمولوجي تؤدي إلى مفهوم نسبي للثقافة، واختيار منهج الملاحظة المستمر والمنتظم والبعيد عن الأحكام المسبقة لكيان ثقافي محدد يؤدي تدريجيا إلى اعتبار هذا الكيان كيانا مستقلا ومتمايزا.

1. **نقد النسبية الثقافية:**

يذهب دارسون وناقدون لنظرية النسبية الثقافية، أن هذه الأخيرة وضعت أساسا لمناهضة الشوفينية والعصبية القومية، لكنت حدث أن أصبح لها تأثير مضاد، ومعاكس تماما للهدف الذي وضعت من أجله وإن ظهر هذا التأثير أقل تناقضا مما يبدو، ذلك أن "القومية" و"النسبية الثقافية" لهما في الحقيقة نفس النشأة في مذهب "الرومانسية الألمانية" وقد كان فيلسوفها الأساسي هو "يوهان فون هردر"، ومن أفكار هذا الفيلسوف الألماني أنشأ فرانس بواز باعتباره ألماني الأصل نظرية النسبية الثقافية التي تطورت مباشرة في القرن التاسع عشر، وأصبحت العمود الأساسي في علم الأنتروبولوجيا الأمريكية لاحقا.

فقبل كل شيء فإن نظرية "بواز" في "النسبية الثقافية" مبنية على فكرة أن الثقافات محددة ومنغلقة، بمعنى أن العالم مكوّن من "جزر ثقافية" لكل جزيرة ثقافتها المميزة والمختلفة، ولو أن الباحث الاجتماعي أراد أن يكون منصفا "كإنسان" في موضوع دراسته فعليه أن يبذل أقصى جهده أن تدرس جميع الثقافات، وتقيم من منطلقاتها، وداخل أطرها الفكرية، بغض النظر عمّا إذا كان من الممكن تسميتها ثقافة قائمة بذاتها أم لا.([[4]](#footnote-4))

ومن هنا تبرز إحدى المشكلات الناتجة من اتخاذ نظرية النسبية الثقافية كقاعدة للدراسة، هي أننا تعودنا أن نتعامل مع الثقافات المختلفة، وكأنها أنظم مغلقة، تحتوي على عدد معين من البشر يتشابهون مع بعضهم البعض، ويختلفون عن كل من هو خارج عنهم بالتالي جسدنا الثقافة، وتعاملها معها كما نتعامل مع المادة.

بهذه الطريقة نشأ في العلاقات السياسية والأخلاقية، مصطلحات يبدوان مختلفان ومتناقضان وهما "النسبية الأخلاقية" و"السياسة العرقية"، وذلك أن كل من "هردر" و"بواز" نظرا إلى الثقافات على أن لكل منهما خواصها المتميّزة المتفردة وان لها منطقها الخاص بهاولا يمكن أن تفهم إلا من داخل إدراكها الخلقي، هذه النظرة يمكن أن تقود بسهولة إلى استنتاج أن كل الثقافات متساوية الجودة والقيمة، وبالتالي ما على الفرد –من أي أقلية- إلا أن يبرر سلوكه بقوله: أنا لست مذنبا، لأن كل ما فعلته مخالفا لنظامكم القانوني، لا يخالف قيّم ثقافتنا، أو يعتبره البعض من مخالفة القوانين والنظم الاجتماعية.

هذا الأسلوب من التفكير الذي يتخذ "النسبية الثقافية" و"النسبية الأخلاقية" كقاعدة في التطبيق لحل المشاكل الأخلاقية في واقع الحياة العملية، يجعل من المستحيل أن يتم الحكم أخلاقيا على الثقافات، ولو طبقت هذه النسبية الثقافية والأخلاقية بهذا الأسلوب، فسوف تؤذي إلى كلا من الشلل السياسي، واضمحلال رؤية الفروق بين الأخلاق والقيم المختلفة.([[5]](#footnote-5))

وقد أصبحت فكرة النسبية الثقافية والأخلاقية شائعة بين الأنتروبولوجيون والاجتماعيون إلى درجة أنهم اتخذوها أسلوبا وفلسفة حياة، بينما تكون هذه النسبية صالحة حتى نقطة معينة، هذه النقطة يمكن تسميتها بنقطة الصفر الأخلاقي، عندما يجبر الإنسان نحو اتخاذ موقف محدد واضح المعالم للإجابة على سؤال أخلاقي، عندما يكون هذا الإنسان قادر على أن يختار بين هذا أو ذاك، وليس هذا وذاك.

ويبقى مفهوم النسبية الثقافية قابل للمرونة من حيث أنه يساعد في إدراك أن الثقافة ليس واحدة بين البشر جميعا، حيث يستوعب فكرة التعدد الثقافي والتمايز الموجود بين كل ثقافة وأخرى، وإدراكها يساعد الفرد في التنازل عن مفهوم الحقيقة المطلقة، ويؤمن بأن اختلاف الآخر أمر وارد مهما كان شكل هذا الاختلاف، مما يجنبه محاكمة هذا الآخر محاكمة قيمية أخلاقية.

1. **()**- انظر: ويكبيديا في تحديد النسبية الثقافية aarm . wikipediaتاريخ الاطلاع 20 فيفري 2019. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- حسين فهيم: قصة الأنتروبولوجيا، مرجع سابق، ص127. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- المرجع نفسه، ص130. [↑](#footnote-ref-3)
4. **()**- اوماس هيلاند اريكسن، ترجمة: محي الدين عبد الغني، مفترق طرق الثقافات، مقالات عن الكربولية، ط1، المركز القومي للترجمة، 2013، ص65. [↑](#footnote-ref-4)
5. **()**-اوماس هيلاند اريكسن، المرجع السابق، ص 79. [↑](#footnote-ref-5)